المحاضرة السادسة : الحقيقة المحمدية

1/ مفهوم الحقيقة المحمدية عند المتصوفة:

من بين أقدم النظريات الفلسفية التي تداولها المتصوفة على مدار القرون والأزمان ؛ مقولة ‹‹ الحقيقة المحمدية ›› ويقصد بها أن النور المحمدي أزلي، وهو أصل الوجود ، وأول شيء خلقه الله تعالى وكل موجود يستمد منه ‹‹ فهو مبدأ الوجود والحياة وهو المحور الذي تدور من حوله أفلاك الوجود كله ، وهو بذلك منبث في كل موجود ، بل هو روحه ونوره الذي يفرض عليه . وهو نور تجسم في صورة آدم وصور الأنبياء من بعده . وهو يتجسم بعد الرسول في صور الأولياء من أقطاب الصوفية ، إذ يستمدون من نوره ما يجعلهم يشعرون لا بالمحبة العميقة إزاءه ، بل بالفناء على نحو فنائهم في الذات العلية ›› [1]

أول من تحدث عن النور المحمدي وأفاض في ذكره ، وجعله مصدر الخلق جميعا هو الحلاج، فمن نوره صدرت جميع المخلوقات ، وهو أصل الوجود وحقيقته ، ومن نوره شعت أنوار النبوات جميعا ، يقول الحلاج في كتابه " الطواسين " : ‹‹ أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم ، سوى نور صاحب الكرم ، همته سبقت الهمم ، وجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم . ›› [2]

وبهذا المفهوم اتجه الصوفية نحو تقديس شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وأضفوا عليه هالة من التقديس تصل إلى حد التأليه عند بعضهم ؛ وهذا مجانف ومناف لجوهر هذا الدين ، الذي يقرر حقيقة بشرية الأنبياء ومنهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

---

[1]) – شوقي ضيف ، فصول في الشعر ونقده ، ص 230 ، 231

[2]) – عبد الحكيم حسان ، التصوف في الشعر العربي الإسلامي ، ص 353 (نقلا عن : الطواسين ، ص 11)

ومن وحي نظرية النور المحمدي للحلاج ، سار المتصوفون من بعده في أثره ، فنادوا بنفس الفكرة ولكن بتسميات مختلفة مثل : (الإنسان الكامل) أو (القطب ، الغوث) التي تحدث عنها باستفاضة ابن عربي .

وهي فكرة مستقاة من عناصر أجنبية ‹‹ فالعنصر المسيحي فيها ظاهر ، والنظرية ليست مسيحية الأصل ، ولكنها يونانية نقلت إلى المسيحية ثم نقلها الحلاج إلى التصوف كما نقلها غيره إلى العقائد الأخرى.›› [1]

تحدث ابن عربي عن هذه النظرية ، أو ما سماه **بالإنسان الكامل** فرأى بأن له وجهين هما: الوجه الأول يرتد إلى حقيقة معنوية روحية سارية في الكون كله من أعلاه إلى أدناه هي **الحقيقة المحمدية** ، أما الوجه الثاني هو تجليها وظهورها في صورة كونية تنتمي إلى عالمي الغيب والشهادة [2]

2 / الحقيقة المحمدية في مدائح المتصوفة :

ذاعت المدائح النبوية منذ مفتتح الدعوة الإسلامية ، ومن أوائل شعراء المديح النبوي : حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير والنابغة الجعدي.. وغيرهم ، ثم مع مرور الأعوام وتوالي الحقب والعصور ، انتشر هذا النوع من الشعر في البيئات الإسلامية ، وتعاظم دوره في عصور تقهقر حكم المسلمين للأندلس وزمن الحروب الصليبية ، وغزو التتار للشرق الإسلامي .

ورغم أن ما يقال من شعر بعد الوفاة هو رثاء ؛ لكن ما قيل عن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعد رثاء أو بكاء ، لأن شخصية المصطفى ، ورسالته السماوية ، وسيرته

---

[1]) – عبد الحكيم حسان ، مرجع سابق ،ص 353

[2]) – ينظر : أمين يوسف عودة ، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية ، ط1 ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، 1428،2008 ، ص 204

العطرة وهديه وشمائله حية على مر الدهور ، وهي في قلب كل جيل ، وفي نبض كل جنس من البشر وعرق من الأعراق ؛ ممن يتبعون هديه ويؤمنون بنبوته . بل إن سيرته لَتحضر في قلوب أتباعه كلما اشتد الخطب ونزلت الأرزاء والكرب في أقطار بلاد المسلمين ، وهذا ما يفسر كثرة المدائح في القرنين السادس والسابع الهجريين ، وقوة ونصاعة ما قيل من أشعار مدحية .

ويتسم المديح النبوي بجمال الأسلوب ، وعمق المعنى ، وقوة الشعور وصدق العاطفة ، والنهل من منابع القرآن الكريم والشريعة الغراء ، وصفاء السيرة النبوية العطرة ‹‹ ويدوي المديح النبوي في كل مكان ، ويتكاثر في كل بيئة ، وخاصة بيئة المتصوفة الذين جعلوا محبة الرسول جزءا من محبة الذات الإلهية ، بل إن محبتهما واحدة ، وحقيقتهما واحدة ، فلا فرق بين الحقيقة المحمدية والحقيقة الإلهية ، إذ هما جميعا روح كل كائن وحياة كل

وجود ، وما محمد إلاّ الكلمة الإلهية التي تمثلت في الأنبياء وتتمثل في أقطاب الصوفية من بعدهم. ›› [1]

من أشهر شعراء المدائح النبوية **الإمام شرف الدين أبو عبد الله بن سعيد البوصيري** (ت 698) وهو من أتباع الطريقة الشاذلية التي انتشرت بقوة في مصر ، رغم أن أصولها مغربية (شيخ الطريقة أبو الحسن الشاذلي من مواليد تونس)

ففي أبيات شعرية ، يصور الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه علة الوجود وسره وروحه وحجة الله في الكون ، يقول :

محمد حجّة الله التي ظهرتْ * بسنّةٍ ما لها في الخلقِ تحويلُ

من كمّلَ اللهُ معناهُ وصورتهُ * فلم يفتهُ على الحالينِ تكميلُ

[1]) – شوقي ضيف ، فصول في الشعر ونقده ، ص 232

من آدمٍ ولحينِ الوضعِ جوهرُهُ الـ * مكنونُ في أنفسِ الأصدافِ محمولُ

فللنبوّةِ إتمامٌ ومبتدأُ * بهِ وللفخْرِ تعجيلٌ وتأجيلُ [1]

ونظم الشاعر همزيته في أربعمائة وخمسين بيتا ، وسماها " أم القرى في مدح خير الورى" وهي قصيدة اشتهرت مشرقا ومغربا وعارضه الشعراء قديما وحديثا وخمسوها وشطروها ؛ ويعرض فيها لحياة نبينا من مولده إلى وفاته ، كما يصور مختلف الجوانب التي اعترضت مسار دعوته ، فيصور شمائله ، ومغازيه وجهاده ، وهجرته وأعماله ، وهديه وسنته وصبره ومعجزاته..كما يصور نوره الأزلي الذي يسري في جميع الأنبياء وفي الكون ككل ، يقول :

كيف ترقى رُقيّكَ الأنبياءُ * يا سماءً ما طاولتها سماءُ

لم يساووكَ في عُلاكَ وقد حا * ل سناً منك دونهم وسناءُ

إنّما مثّلوا صفاتك للنا * سِ كما مثّل النّجومَ الماءُ

أنت مصباحُ كلِّ فضلٍ فما تصْـ * ـدرُ إلاّ عن ضوئكَ الأضواءُ [2]

وينظم قصيدة أخرى فاقتها شهرة ومكانة ، وهي قصيدته الميمية المسماة ب**البردة** ، فقد ذاعت في مشرق الأرض ومغربها في عصره والعصور المتتالية ، وظل العامة يتغنون بها في المساجد والزوايا ومختلف المناسبات الدينية وخاصة في الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف ، كما احتفى بها الأمراء وعلية القوم في مجالسهم وأنديتهم وأسمارهم ، بل إن شهرتها امتدت إلى زمان الناس هذا ‹‹ وقد ترجمها بعض المستشرقين إلى لغاتهم ، فترجمت

[1]) – شوقي ضيف ، مرجع سابق ، ص 238

[2]) – نفسه ، ص240 ، 241

إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية . وما يتلوها أحد حتى تصغى إليه الآذان والقلوب لعذوبتها وجمال جرسها وتمكن قوافيها . ›› [1]

استهل الشاعر مدحيته بمقدمة غزلية ، يتشبب فيها بفتاة حجازية من بني سلم على عادة الشعراء القدامى ، فيقول :

أمن تذكرِ جيرانٍ بذي سلَمِ * مزجتَ دمعا جرى من مُقلةٍ بدمِ

أمْ هبّتِ الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ * وأومضَ البرقُ في الظلماءِ من إضمِ

فما لعينيكَ إنِ قلتُ اكففا همتا * وما لقلبكَ إن قلتَ استفقْ يهمِ

أيحسبُ الصَّبُ أنّ الحبَّ مُنكتمٌ * ما بين مُنسجمٍ منهُ ومُضطرمِ

يا لائمي في الهوى العُذريّ معذرةً * منّي إليكَ ولو أنصفتَ لم تلمِ [2]

ثم يتغنى بالنبي المصطفى ويثني على محامده ويعدد مناقبه ، فهو سيد الكونين ، وأشرف العرب والعجم ، الله اصطفاه واجتباه فهو خير أنبياء الله تعالى ، صادق في أقواله ، طيب في فعاله ، يقول :

محمدٌ أشرفُ الأعرابِ والعجمِ * محمدٌ خيرُ من يمشي على قدمِ

محمدٌ تاجُ رسلِ اللهِ قاطبةً * محمدٌ صادقُ الأقوالِ والكَلمِ

محمدٌ حُبيتْ بالنورِ طينتُهُ * محمدٌ لم يزَلْ نورًا من القِدمِ

محمدٌ يومَ بعثِ الناسِ شافعنا * محمدٌ نورُهُ الهادي من الظُّلمِ [3]

[1]) – شوقي ضيف ، مرجع سابق ، ص 246

[2]) – نفس المرجع ، ص 246 ، 247

[3]) – نفس المرجع ، ص 253 ، 254